

شاعر السموّ زهين ابن أبي سلمى

للدكتور عبد القادر الرناي

(جامعة اليرموك/الأردن)

ما زال الشعر الجاهلي يشغل الدارسين والمهتمين بالفن عموماً، وذلك لما له من تميز في الإشراق والبساطة مع العمق والشمول. وهو ككل فن بدائي ممتاز يشكل، بجدارته، الأصول الأولى للفن الشعري العربي الأصيل كله.

أما أعلامه فيُنظر إليهم على أنهم الفلاسفة الأول الذين ابتكروا المعاني وشققوها بقدرتهم الذهنية، وبإخلاصهم في الوصول إلى حلول مقنعة لمسألة الإنسان والوجود.

وزهير واحد من أعلام الشعر الجاهلي، بل هو واحد من المبرزين فيه، فهو لهذا يستحق اهتماماً مستمراً ودراسة متجددة، لأن مثل هذه الدراسة وذلك الاهتمام قادران على اكتشاف عناصر جديدة تضاف إلى تراث هذا الشاعر الخالد.

سأتعرض لزهير في الصفحات التالية من زاويتين: أدرس في أولهما زهيراً الإنسان: أصوله وفروعه، ثم سماته الخلقية والسلوكية، على أساس أن لهذا دوراً كبيراً في تشكيل فكره والاهتمامات الشعرية عنده؛ كما أدرس في ثانيتهما زهيراً الشاعر، بهدف الوقوف على قدراته الفنية التي جعلته شاعراً متميزاً في خصائصه ومذهبه.

هو زهير بن أبي سلمى (بضم السين)^(١). واسم أبي سلمى - والده - ربيعة بن رياح بن قرّة بن الحارث، من بني مزينة^(٢). وأكد كعب بن زهير نسبه في مزينة بقوله^(٣):

هُمُ الْأَصْلُ مِنِّي حَيْثُ كُنْتُ وَإِنِّي مِنْ الْمُزَيْنِيِّينَ الْمَصْفِيِّينَ بِالكَرْمِ

ومزينة إحدى قبائل مضر، فهي منسوبة - كما يقول ابن الكلبي - إلى مزينة بنت كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، التي كانت عند عمرو بن أد بن طانجة بن مضر بن نزار من معدّ بن عدنان؛ ولم تلد مزينة لعمرو غير عثمان وأوس، وهذا الأخير هو الجد الأصل لزهير^(٤). وذكر عن طريق آخر أن مزينة هي أم عمرو بن أد، وليس زوجته^(٥).

أما ابن سلام فيجعل مزينة واحداً من أجداد ربيعة والد زهير^(٦).

وعلى كل حال فزهير مزني النسب، لكنه ولد في بني عبدالله بن غطفان، لأن والده كان مع أهل بيته في هؤلاء القوم حتى عرف بهم ونسب إليهم.

(١) البغدادي: خزنة الأدب (ط. دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٧) ٣٣٢/٢، وورد فيها أنه

جاء في الصحاح: "ليس في العرب سلمى (بضم السين) غيره".

(٢) الأصفهاني: الأغاني (ط. دار الكتب المصرية) ٢٨٨/١٠.

(٣) السكري: شرح ديوان كعب بن زهير (ط. دار الكتب المصرية) ٦٧.

(٤) ثعلب: شرح ديوان زهير بن أبي سلمى (ط. دار الكتب المصرية) ٣٣٠.

(٥) الأغاني: ٢٨٨/١٠.

(٦) الجمحي: طبقات فحول الشعراء (ط. دار المعارف. د.ت) ٤٣.

وقد ذهب بعض الباحثين واهماً إلى أنه منهم^(٧). وكان بعض أهل العلم من غطفان يدّعون أنه منهم، ويشككون في صحة ادّعاء كعب السابق في أنه من مزينة^(٨).

أما انضمام أبي سلمى، والد زهير، إلى بني غطفان وبقاؤه فيهم، فسببه - كما تقول أكثر الروايات^(٩) - أن أبا سلمى هذا كان قد خرج مع خاله أسعد بن الغدير، وابن خاله كعب، وبعض من بني مرة للإغارة على طيء، فأصابوا نِعماً كثيراً وأموالاً؛ فرجعوا حتى انتهوا إلى أرضهم، أرض بني مرة، فطلب أبو سلمى من خاله وابنه أن يفردا له سهماً من الغنيمة، فأبيا عليه ومنعاه حقه، فكفّ عنهما حتى إذا كان الليل أكره أمه على الارتحال معه من أرضهم. وقد قال في ذلك:

لتعدون إبلٌ مَحْيَسَةٌ من عند سعدٍ وابنه كعبٍ
الآكلين صريح قومهما أكل الحباري بُزْعَ الرُّطْبِ^(١٠)

واتجه إلى قبيلته مزينة فلبث فيهم حيناً، ثم أقبل بمزينة مغيراً على أخواله من بني غطفان. ولما ابتعد المزيّنون عن ديارهم وأشرفوا على ديار غطفان، تطايروا عنه راجعين، وتركوه وحيداً. فقال معتبراً:

من يشتري فرساً لخيرٍ غزوها وأبت عشيرةً ربّها أن تُسهلا

(٧) ابن قتيبة: الشعر والشعراء (ط. دار المعارف ١٩٦٧) ٨٦/١ وما بعدها.

(٨) طبقات فحول الشعراء/٩٢. ورد على لسان ثعلب في شرح ديوان زهير ص ٨٦ أن بني عبدالله بن غطفان يقولون: هو منا إلا أنه يكذب ادعاءهم ويعدّه باطلاً.

(٩) الأغاني ٢٩١/١٠.

(١٠) الحباري: طائر يقع على الذكر والأنثى، يضرب به المثل في البلاهة والحمق فيقال: (أبله من الحباري).

ثم أقبل حين رأى ذلك من مزينة حتى دخل في أخواله من بني مرة، وفي بني عبدالله بن غطفان منهم، وقد كان هؤلاء يسكنون (الحاجر) في نجد^(١١).

فعلى هذا يكون الغطفانيون أخوالاً لوالد زهير، وليسوا أصولاً له كما زعم بعض الباحثين. أما أم زهير فكل ما نعرف عنها أنها من غطفان، من بني مرة بن سعد بن ذبيان^(١٢)، وأنها أخت أو ابنة أخ للشاعر الجاهلي الكبير بشامة بن الغدير. وكان زهير يعجب بشعره ويدعوه بالخال^(١٣).

وذكر حماد أن بشامة هذا كان أشعر غطفان في زمانه، وكان رجلاً مقعداً حازم الرأي كثير المال. ولم يكن له ولد؛ جمع ثروته من حزم رأيه، إذ كانت غطفان إذا أرادوا الغزو أتوه فأمرّوه واستشاروه وصدروا عن رأيه، فإذا انصرفوا قسموا له مثلما يقسمون لأفضلهم. فلما حضره الموت جعل يقسم ماله في أهل بيته وبين إخوته، فأتاه زهير فقال: يا خاله، لو قسمت لي من مالك؟ قال: قد والله يا ابن أخت قسمت لك أفضل من ذلك وأجزله. قال: ما هو؟ قال: شعري ورثتيه. فمن أين جئت بهذا الشعر؟ لعلك ترى أنك جئت به من مزينة، وقد علمت العرب أن حصاتها وعين مائها في الشعر هذا الحي من غطفان. ^(١٤) والحدث في هذه الرواية - إن كان صحيحاً - يدلّ على تأثير بشامة في زهير، وعلى أن زهيراً كان شاعراً معجباً به، مما دعا بشامة إلى الاعتزاز بأنه امتداده الفني.

(١١) الأغاني: ٣٠٩/١٠. وشوقي ضيف: العصر الجاهلي (ط. دار المعارف، الطبعة السابعة) / ٣٠٠.

(١٢) وكان أبو سلمى تزوج إلى رجل من بني سهم بن مرة، أو فهر بن مرة، يقال له الغدير. انظر شرح ديوان زهير/ ٥٥ والأغاني ٣٩٠/١٠.

(١٣) جاء في شرح ديوان زهير ص ٣٢٥ أن بشامة عم لأم زهير، لكن صاحب الأغاني يذكر في ج ٣١٢/١٠ أنه خال زهير. أما ابن سلام فقد نص في طبقات فحول الشعراء/ ٥٦٤ على أن زهيراً ابن أخته.

(١٤) الأغاني ٣١٢/١٠ وشرح ديوان زهير ٣٢٥.

ويظهر أن والدة زهير تزوجت بعد وفاة أبيه؛ فقد ورد في الأخبار أن أوس بن حجر كان فحل مضر في الشعر، حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه، وكان زهير راويته. وكان أوس زوج أم زهير^(١٥).

لم يترك زهير الحاجر في نجد، أرض أخواله بعد موت والده، بل ظل فيها هو وأهل بيته الذين لا نعرف منهم سوى أخيه، وكان يدعى أوساً، وهو أخوه من أمه الغطفانية^(١٦). وأخته الخنساء التي عاشت إلى ما بعد موته، حيث نظمت فيه مرثية حزينة معبرة^(١٧).

أما زهير فقد تزوج إلى أخواله؛ تزوج كبشة بنت عمار بن عدي بن سحيم، أحد بني عبدالله بن غطفان، فهي أم ولده^(١٨)؛ ويبدو أنها كانت الزوجة الثانية بعد (أم أوفى) زوجته الأولى التي أحبها كثيراً، لكن الذي دفعه إلى زواج كبشة عقم أم أوفى^(١٩)، أو أنها ولدت له ومات أولادها جميعاً^(٢٠).

لم يرح هذا الزواج أم أوفى فدبت فيها الغيرة وأذت زهيراً كثيراً، مما اضطره إلى طلاقها وهو كاره، ثم ندم على ذلك وقال^(٢١):

لَعَمْرُكَ وَالْخَطُوبُ مُغَيَّرَاتٌ وفي طول المعاشرة النَّقَالِي
لَقَدْ بِاللَّيْتِ مَطْعَنٌ أُمَّ أَوْفَى ولكنَّ أُمَّ أَوْفَى مَا تُبَالِي

(١٥) طبقات فحول الشعراء/٨١.

(١٦) شرح ديوان زهير/ ٥٥.

(١٧) المصدر السابق/٣٦٦.

(١٨) المصدر نفسه ٣٢٦، ٣٣٥.

(١٩) الموجز في الأدب العربي وتاريخه (وضع لجنة من الأساتذة بالأقطار العربية، دار المعارف ببلنات ١٩٦٢/١٧٩).

(٢٠) الأغاني ٣١٣/١٠، والخبر منقول عن ابن الاعرابي.

(٢١) شرح ديوان زهير/٣٤٢.

ومن الطبيعي أن يؤثر استمرار هذا الحب لأم أوفى على علاقته بكبشة، زوجته الجديدة. لقد واجهته بإحساس المرأة: برمت كثيراً بفتور مشاعره نحوها فعاتبته عتاباً مرّاً، ذكّرتَه فيه بواجب الزوج تجاه امرأته التي تخلص لبيتها وتقوم بواجبها. أمّاً وزوجة؛ وهذا واضح في أبياته التالية^(٢٢):

وقالت أمُّ كعب لا تُزُنَا فلا واللهِ ما لك من مَزارِ
رأيتُك عِبتني وصددت عني فكيف رأيت عِرضي واصطباري
فلم أفسدُ بينك ولم أفرِّب إليك من الملماتِ الكبارِ

ويدافع عن نفسه بجواب مقتضب حمله بيته:

أقيمي أمَّ كعب واستقرِّي فأنيك ما نزلت بها بداري

لقد أكد لها أن الذي يحكم معاملته لها هو شعور الزوج الذي يستشعر مسؤوليته بضرورة العمل على توفير الأمان لزوجته ما دامت في داره تقوم بمهامها جيداً.

أما مسألة الحب فليس لها أن تكلفه بها، ذلك لأن الحب لا يُفرض على الإنسان فرضاً. ولعل موقف زهير هذا يعكس لنا مفهوم الناس في عصره للزواج والحب على حد سواء؛ فليس الزواج لتحقيق عاطفة الحب دائماً، وإنما الزواج في كثير من حالاته للإنجاب والعناية بشؤون الحياة العائلية والمنزلية فحسب.

وعلى أية حال فقد أنجبت له كبشة هذه ثلاثة أبناء ذكوراً، هم: كعب وبجير وسالم^(٢٣)؛ أما سالم فمات في حادث شؤم ينقله الرواة على النحو التالي: كان سالم هذا جميل الوجه حسن الشعر، فأهدى إليه رجل بُردين، فلبسهما وركب فرساً خياراً،

(٢٢) شرح ديوان زهير ٣٣٥.

(٢٣) العباسي: معاهد التنصيص (المطبعة البهية ١٣١٦هـ) ١١٠/٢.

فمرّ بامرأة من العرب في مكان ماء يقال له النَّاءة، فقالت: ما رأيت كاليوم قط رجلاً ولا بردين ولا فرساً أحسن مما أرى، فما مضى قليلاً حتى عثر به الفرس، فاندقت عنقه، وانشق بُرداه، وكُسرت عنق فرسه؛ فقال زهير يرثيه وبشير إلى الحادثة:

رأت رجلاً لاقى من العيشِ غبطةً وأخطأه فيها الأمورُ العظامُ
وشبَّ له فيها بُنُونٌ وتوبِعتُ سلامةُ أعوامٍ له وغنائمُ
وعندي من الأيام ما ليس عنده فقلتُ لها مهلاً فإنَّكِ حالمُ
لعلك يوماً أن تُراعي بفاجعٍ كما راعني يوم النَّاءة سالمُ^(٢٤)

إن في الأبيات تذكيراً بأن السرور لا يدوم، وبأن على الإنسان دائماً أن يتهيأ لاستقبال الفواجع لأن الدنيا في تقلب مستمر. ونحن على أية حال لا ندري مدى الصدق في قصة مقتل سالم، ولكن الثابت لدينا أن زهيراً فجع بابنه هذا فجيعة عظيمة، جعلته يقف في الأبيات السابقة عند حالين متناقضين: حال من مدّت له الدنيا حبل السلامة والغنى، وحال من بلّته بالمصائب وفجعته بأبنائه. فالشعور بالأسى العميق كان حتماً وراء إبراز تناقض الدنيا السحيق.

أما ولداه كعب وبجير فلحقا الإسلام وأسلما: أسلم بجير أولاً وتمنّع كعب، بل قال أبياتاً يؤنب فيها بجيراً على إسلامه، ويعرّض بالإسلام والرسول. قال^(٢٥):

ألا أبلغن عني بُجيراً رسالةً فهل لك فيما قلتُ بالخيفِ هلْ لكا
سُقيت بكأسٍ عند آل محمدٍ فأنهلك المأمونُ منها وعلكا
وخالفت أسباب الهدى وتبعتهُ على أيّ شيءٍ ويُب غَيْرِكَ دلكا

(٢٤) الأغانى: ٣١٣/١٠ وما بعدها ثم شرح ديوان زهير/٣٤١.

(٢٥) شرح ديوان كعب بن زهير/٣ وما بعدها، و(ويُب) كَوَيْل، تقول وَيَيْبُك وَيَيْبُ لك.

فبلغ رسول الله شعره هذا فتوعده ونذر دمه، فكتب إليه أخوه بجير يحذره ويدعوه إلى القدوم على الرسول وإعلان التوبة والإسلام، وطمأنه بأن محمداً عليه السلام لا يقتل أحداً جاءه تائباً. ففعل ذلك كعب، وقال قصيدة جليلة ألقاها بين يدي الرسول الكريم، فقبل توبته وعفا عنه، وكساه برداً اشتراه منه معاوية بعشرين ألف درهم.

هذا وتذكر بعض المصادر أن إسلام كعب قد أعلن بعد بعثة الرسول مباشرة، وذلك تحقيقاً لوصية والده قبل وفاته، وهي تورث على هذا روايتين:

إحدهما أن زهيراً رأى في منامه وفي أواخر عمره أن آتياً أتاه فحمله إلى السماء حتى كاد يمسكها بيده، ثم تركه فهوى إلى الأرض. فلما حضره الموت قصّ رؤياه على ولده كعب ثم قال: إني لا أشك أنه كائن من خبر السماء بعدي، فإن كان فتمسكوا به وسارعوا إليه. ثم توفي قبل المبعث بسنة؛ فلما بعث رسول الله خرج إليه ولده كعب بقصيدته (بانة سعاد) وأسلم^(٢٦). وثانيتهما أن زهيراً رأى في منامه أن سبباً تدلى من السماء إلى الأرض وكان الناس يمسكونه، وكلما أراد أن يمسكه تقلص عنه؛ فأوله نبي آخر الزمان، فإنه واسطة بين الله والناس، وأنّ مدّته لا تصل إلى زمن مبعثه، فأوصى بنيه أن يؤمنوا به^(٢٧). وأعتقد أن هاتين الروايتين موضوعتان، وأن الخبر الأول المشفوع بأبيات شعرية لبجير هو أقرب إلى التصديق منهما. والذي يدفعني لهذا الاعتقاد الافتعال الواضح للرؤية من أجل التدليل على تنبؤ بعض الناس بالنبوة قبل وقوعها. ولربما استفاد واضعها من التقوى التي عرف بها زهير في الجاهلية كما سيأتي.

(٢٦) خزنة الأدب ٢/٢٣٥.

(٢٧) المصدر السابق ٢/٣٣٦.

ومن أخبار زهير أيضاً أن كانت له ابنة اسمها (وبرة) وأنها كانت شاعرة؛
فعندما قال زهير:

أرادت جوازاً بالرئيسِ فصدّها رجالٌ فُعودٌ في الدجى بالمعابِلِ
كأنّ مُدهدى حنظلٍ حيثُ سَوَّفَتْ بأعطانها من جرّها بالجحافلِ

فقال زهير من يجيز هذا. فقالت وبرة: يا أبتاه أنا أجيزه. وأنشدت:

جدودٌ فلّت بالصيفِ عنها جحاشها فقد غررت أطباؤها كالمكاحلِ^(٢٨)

- ٢ -

ترسم لنا الأخبار وشعر الشاعر صورة جميلة لزهير؛ فهو من نفر الذين
كانوا يحاسبون أنفسهم كثيراً ليقتربوا من الخير، ويبتعدوا عن الشر؛ ولهذا استقام
خلقه، وباعد بينه وبين الموبقات، كالخمر والميسر والأزلام^(٢٩).

لقد تساوت نفسه وابتعدت عن تدني المجتمع الجاهلي وتساقطه في
الحضيض؛ وبذلك اقترب من الإيمان. وفي شعره أبيات تشير إلى أنه كان قريباً
من الإيمان حقاً فهو - مثلاً - يؤمن بأن هناك إلهاً يتدبر الكون ويحاسب على
الأعمال. قال^(٣٠):

والمال ما حوّل الإله فلا بُدّ له أن يحوزَه قدرُ
والإثم من شرّ ما يُصَالُ بهِ والبرُّ كالغيثِ نبُّهُ أمرُ

(٢٨) شرح ديوان زهير / ٣٤٥.

(٢٩) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (دار العلم للملايين ببيروت ومكتبة
النهضة ببغداد ١٩٧٦) ٤/٦٧١.

(٣٠) شرح ديوان زهير / ٣١٤.

وهو - كما يبدو في شعره أيضاً - يؤمن بالحساب والعقاب، وبأن أعمال الإنسان مرصودة ومحفوظة بكتاب مدخور^(٣١):

يُوخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرُ لِيَوْمِ حِسَابٍ أَمْ يُعَجَّلُ فَيُنْقَمَ

لقد كان ذا خلق جميل، مشدود برباط الإيمان دائماً؛ ذلك لأنه يرى أن الإنسان قادر على اكتساب خلق حميد إذا ما سعى للتعلق بالخير الذي يريده الإله أن يعم الكون والناس^(٣٢):

عَوَّدْتَ قَوْمَكَ، إِنَّ كُلَّ مُبَرِّزٍ مَهْمَا يُعَوِّدُ شَيْمَةً يَتَعَوِّدُ
حَزْمًا وَيَرًّا لِلإِلهِ وَشَيْمَةً تَعْفُو عَلَى خُلُقِ الْمَسِيءِ الْمُفْسِدِ

وقد بلغ من إيمانه أنه خشي عقوبة الله لأنه هجا بني عليم بن خباب بدون حق، وكان يقول: "ما خرجت في ليلة ظلماء إلا خفت أن يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتهم"^(٣٣). ولقد اعتقد بعض الباحثين أنه كان خاضعاً لتأثير النصرانية، كما عده بعضهم نصرانياً؛ لكن يبدو أن الرأي الذي ذهب إليه بروكلمان صواب، فهو يعتقد بأن تأثير النصرانية كان واقعاً في الجزيرة العربية، لكننا لا يجوز لهذا أن نعد زهيراً من النصارى^(٣٤). وكان عادلاً يحب العدل، ويدعو دائماً إلى إعادة الأمور لنصاب الحق؛ ولهذا بارك عمل كل من هرم بن سنان والحارث ابن عوف، اللذين تحملا ديات القتلى، وأصلحا بين الحيين المتخاصمين: عبس وذبيان، بعد حرب دامت أربعين عاماً.

(٣١) المصدر السابق/١٨.

(٣٢) المصدر نفسه/ ٢٧٧.

(٣٣) الأغاني ٣٠٩/١٠ وشرح ديوان زهير /٥٦.

(٣٤) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي (ط. دار المعارف بمصر د. ت) ٩٥/١.

يَمِيناً لِنِعْمِ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمٍ
تَدَارَكْتُمَا عِبْساً وَدُبِّيَانَ بَعْدَمَا تَفَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشِمٍ^(٣٥)

ورأيه في تلك الديات أنها أخذت بغير حق؛ لأن الذي تحمّل دفعها لا ذنب له
سوى حبه أن يسود الصفاء بدل الشر:

لَعَمْرُكَ مَا جَرَّتْ عَلَيْهِمْ رِمَاحُهُمْ دَمَ ابْنِ نَهْيِكَ أَوْ قَتِيلِ الْمُتَمِّمِ
فَكَلَّا أَرَاهُمْ أَصْبَحُوا يَعْقَلُونَهُ عَلَالَةَ أَلْفٍ بَعْدَ أَلْفٍ مِصْتَمِ
تَسَاقُ إِلَى قَوْمٍ لِقَوْمٍ غَرَامَةً صَحِيحَاتِ مَالٍ طَالَعَاتٍ لِمَخْرَمٍ^(٣٦)

إنه يستغل هذه الحادثة غير المنطقية لحث المجتمع على رؤية الخطأ في
نظامه الاجتماعي؛ فلو كان العدل هو الذي يسيّره لما احتاج إلى أن يقبل هذا
الأمر الغريب.

إن مطلب العدالة ربما نما مع الشاعر، خاصة وأن أخواله كانوا قد ظلموا
والده ظلماً دفعه إلى تصرفات حادة جداً، كما مرّ بنا سابقاً. وإنني أعتقد أن حادثة
والده التي كانت السبب المباشر في توطنه بأرض أخواله إلى الأبد كانت مؤثرة
جداً في نفسية زهير وفكره وسلوكه، ولهذا أصبح السلام والعدالة مطلبه الأساسي
في الحياة والوجود الإنساني كله.

ولهذا كان أليفاً جداً لمن عرفهم واختلط بهم، مهما كانت مستوياتهم
الاجتماعية، وعلى أية صفة كانت علاقتهم به. والمثل الرائع الذي يستأهل التوقف
هنا قصته مع راعيه (يسار): كان الحارب بن ورقاء الصيداوي، من بني أسد،

(٣٥) شرح ديوان زهير / ١٤، ومنشم امرأة تبيع العطور وقيل: من التنشيم في الشر.

(٣٦) المصدر السابق/ ٢٥ وما بعدها. العلالة: الزيادة هنا. مصتم: تام. المخرم: الثنية في
الجبيل.

أغار على بني عبدالله بن غطفان، فغنم فاستاق إبل زهير وراعيه يساراً^(٣٧)، مما دفع زهيراً أن يجاهد طويلاً لاسترداد راعيه، حيث قال قصيدة يهجو بها الحارث بن ورقاء وقومه، ويهدده بغيرها إن لم يعد يساراً سالمًا، ومطلع القصيدة^(٣٨):

تَعَلَّمُ أَنَّ شَرَّ النَّاسِ حَيٌّ يُؤَادِي فِي شِعَارِهِمْ يَسَارُ

ويبدو أن الحارث قد تأثر بأقوال زهير فعزم على إعادة يسار، لكن قومه نهوه وحالوا بينه وبين رغبته. فبعث زهير فيهم قصيدة يهجوهم ويمدح الحارث ويشجعه، ويهيب به أن لا يستمع إليهم. ويبدو أنه نجح في ذلك كما يقول^(٣٩):

أَبْلَغُ لَدَيْكَ بَنِي الصَّيْدَاءِ كُلَّهُمْ أَنْ يَسَارًا أَتَانَا غَيْرَ مَغْلُولٍ
وَلَا مَهَانَ وَلَكِنْ عِنْدَ ذِي كَرَمٍ وَفِي حِبَالٍ وَفِي الْعَهْدِ مَأْمُولٍ

من الملاحظ في هذه القصائد أن زهيراً لم ينشد استرداد شيء من أمواله، لكنه كان شديد الحرص على أن يعود إليه (يسار) فقط؛ وهذا يدل على الألفة المتأصلة في طبع هذا الرجل، وعلى الوفاء الذي فطر عليه أيضاً. فيسار مجرد راع بسيط، لكن اختلاطه بزهير وُلد في ذات الشاعر مشاعر جميلة: خاصمَ ومالاً بدافع منها حتى يستردَّ راعيه المخلص.

هذا فضلاً عن وفائه السابق الذكر لهرم، مدحه لأهله^(٤٠) تحقيقاً لهذا الوفاء، عرف عنه شدة وفائه لزوجته (أم أوفى)؛ فلقد ظل يذكرها بأحسن ما تذكر به أنثى بالرغم من نشوزها وانفصالها عنه؛ وقد أدى به هذا الوفاء إلى مواقف صعبة مع

(٣٧) الأغاني ١٠/٣٠٧ - ٣٠٩.

(٣٨) شرح ديوان زهير/٣٠٠.

(٣٩) المصدر نفسه/٣٠٨.

(٤٠) انظر مديحه لسنان والد زهير في ديوانه/ ١٩٣، ٢٦٨، ٢٩٢، ٣١٦، ٣٤٦ ورثاءه أباه/٣٣٤.

زوجته الجديدة، لكنه في علاقته بهذه المرأة الجديدة أثبت أيضاً أنه رجل طُبع على الألفة وحسن المعشر؛ فحين عاتبته على استمرار تعلقه بأم أوفى - زوجته القديمة- لم ينكر ذلك، بل ذهب في صراحته إلى حد أن عرّفها موقعها منه: فهي ليست أكثر من امرأة تزوجها للإنجاب، وهو معها يقوم بواجبات الزوج على أكمل وجه، كما مرّ بنا سابقاً.

وكان زهير متعففاً، يترفع عن الماديات في علاقاته دائماً؛ لقد ظهر ذلك جلياً في تعامله مع ممدوحيه، وخاصة هرماء؛ فلقد أكثر زهير من مدحه حتى حلف هرم ألاّ يمدحه زهير إلاّ أعطاه، ولا يسأله إلاّ أعطاه، ولا يسلم عليه إلاّ أعطاه عبداً أو وليدة أو فرساً. فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه، وكان إذا مر به في ملاء قال: "عموا صباحاً غير هرم، وخيركم استثنيت"^(٤١).

والى جانب هذا كان زهير سيداً كثير المال: فقد أغناه هرم ثم آل إليه نصيب من مال خاله بشامة بن الغدير، كما يذكر صاحب الأغاني^(٤٢)؛ وكان كريماً يصرف ماله فيما يراه واجباً. روي أن زيد الخيل بن المهلهل الطائي تمكن من بجير فأخذه وهو لا يعرفه؛ ولما عرف أنه ابن زهير حمله على ناقته وختّى سبيله. فأتى بجير أباه فأخبره خبر زيد وما فعله، فأرسل زهير بفرس كميت كان لكعب من كرام الخيل إلى زيد، وكان كعب غائباً فلما جاء أنكر على والده ذلك وقال: كأنك أردت أن تقوي زيدا على قتال غطفان، فقال زهير: هذه إبلي فخذ ثمن فرسك وازدد عليه. وقد عنفت كعباً زوجته فقالت: أما استحييت من أبيك في سنه وشرفه أن تردّ هبته؟

وقد أثر هذا الموقف في زيد الخيل فقال:

(٤١) معاهد التنصيص ١١٠/٢.

(٤٢) الأغاني ٣١٢/١٠.

فلولا زهيرٌ أن أكدر نعمةً لقارعت كعباً ما بقيتُ وما بقى^(٤٣)

ويقال أن زهيراً مات قبل البعثة بقليل. ويحدّد بعضهم وفاته فيجعلها قبل البعثة بسنة واحدة^(٤٤)، أما بروكلمان فيقول: إن "الراجح أنه مات قبل ظهور النبي بزمان طويل^(٤٥)"، وهناك رواية تجعل وفاته بعد البعثة، وتزعم أن الرسول عليه السلام، مرّ به وهو شيخ فقال: اللهم أعذني من شيطانه^(٤٦)؛ وهي رواية مشكوك فيها على أية حال. هذا وقد رثته أخته الخنساء بأبيات جيدة تقول فيها^(٤٧):

فلا يغني توقّي المرء شيئاً ولا عقْدُ التميم ولا الغضار
إذا لاقى منيته فأمسى يساق به وقد حقّ الحذار
ولاقاه من الأيام يوماً كما من قبل لم يخذل فدار

وهكذا انتهت حياة شاعر عاش للخير، واتخذ من شعره أداة لنشره وتمكينه في مجتمع كثر فيه الجهل والظلم والشر.

(٤٣) أبو علي الفالي: ذيل الأمالي (طبعه مصطفى إسماعيل يوسف بن دياب، الطبعة

الثالثة/٥٣ وما بعدها. وشرح ديوان كعب بن زهير/١٢٦ وما بعدها.

(٤٤) شرح ديوان زهير/ ٥٦ وخرزانه الأدب ٢/٣٣٥.

(٤٥) تاريخ الأدب العربي ١/٩٥، وانظر أيضاً تاريخ الآداب العربية لنالينو (ط. دار المعارف بمصر)/٧٨.

(٤٦) معاهد التنصيص ٢/١١٠.

(٤٧) السيوطي: شرح شواهد المغني (دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٦) ١/١٣٤، والغضار:

كان أحدهم إذا خشي على نفسه علّق عليه خرقاً أخضر.

لزهير ديوان شعر طبع عدة طبعات^(٤٨)، ولعل أجودها طبعة دار الكتب التي اعتمدت على رواية ثعلب، وهي الطبعة التي اعتمدها في دراستي هذه.

على الرغم من أن قضية الحرب والسلام أخذت القسط الأكبر من اهتمام الشاعر، فنظم فيها شعراً كثيراً مثلثه قصائده المدحية، إلا أن شعره يحوي أيضاً أغراضاً أخرى، كالرثاء والغزل والهجاء والفخر والحكمة. هذا بالإضافة إلى أن شعره يحوي عناصر مختلفة من معارف عصره ومعالمه؛ فشعره مثلاً من أكثر الأشعار الجاهلية اهتماماً بالكتابة، لقد كررها أكثر من مرة وبخاصة في مقدماته الطللية؛ مثال ذلك قوله^(٤٩):

لمن الديار غشيتها بالفد فد كالوحي في حجر المسيل المخلد

وزهير في شعره يشغل بقضايا إنسانية بالغة الدقة والخطورة في مجتمع جاهلي بدائي، كانت تسوده - إلى حد كبير - شريعة باغية قاسية؛ لذا احتاجت من الشاعر قدراً كبيراً من التجرد والتفكير لوضعها وضماً مؤثراً. فالشاعر متألم للأوضاع السيئة التي ينحدر إليها مجتمعه؛ وقد تمثل تألمه هذا بصور شعرية توحى بأن طريق الخلاص هي السير مع حس السلام الذي بدأ يتخذ جانباً إيجابياً فاعلاً، ومع كل ما من شأنه ترسيخ قيم أو مثل عليا فوق الأرض. ومن هنا التقى

(٤٨) انظر مقدمة ديوان زهير / ٣٠ - ٤٤. وكتاب إحسان النص: زهير بن أبي سلمى (دار الفكر بدمشق ١٩٧٣) ١١٩، وقد عثرت على نص في خزانة الأدب ٣٣٤/٢ يشير إلى ديوان زهير وشروحه. قال البغدادي: (وديوان شعر زهير كبير وعليه شرحان، وهما عندي والحمد لله والمنة، أحدهما بخط مهلهل الشهير الخطاط صاحب الخط المنسوب)، ولم يذكر في مخطوطات الديوان المكتشفة ما يشير إلى هذه النسخة.

(٤٩) شرح ديوان زهير/ ٢٦٨.

كلام الشاعر في دعوته الإصلاحية مع الخُلق الإسلامي الذي جاء بعيد موته.
قيل: أنشد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قوله في هرم:

أثني عليك بما علمت وما أسلفت في النجدات من ذكر
والستر دون الفاحشات ولا يلقاك دون الخير من ستر

فقال عمر: ذلك رسول الله^(٥٠). وكلام عمر هذا هو من نوع كلامه حين سأل بعض ولد هرم أن ينشده بعض مدح زهير في أبيه، فلما أنشده ما طلب قال: إن كان ليحسن فيكم القول. قال: ونحن والله إن كنا لنحسن له العطاء، فقال: لقد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم^(٥١).

ومن هنا قال عبدالملك بن مروان: ما يضر من مدح بما مدح زهير آل أبي حارثة من قوله:

على مكثريهم رزق من يعترهم وعند المقلين السماحة والبذل
ألا يملك أمور الناس^(٥٢) (يعني الخلافة).

إن المعاني التي عاشت وقدرت هذا التقدير في العصور اللاحقة لمعاني إنسانية كثيفة وإن بدت بسيطة مكشوفة؛ فلا عجب إذن أن تلتقي بعض معاني شعره مع بعض الآيات القرآنية الكريمة. لقد لاحظ بعضهم موضع النقاء قوله:
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسُلْم

(٥٠) الأغاني ٣٠٤/١٠.

(٥١) المصدر السابق ٣٠٥/١، ويقال أن عمر قال أيضاً: (ولكن الحل التي كساها أبوك هرماً لم يبيلها الدهر).

(٥٢) المصدر نفسه ٣٠٦/١٠.

مع فحوى الآية الكريمة: "أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة"^(٥٣). وألاحظ التقاء قوله:

فإن الحق مقطعه ثلاثٌ: يمينٌ أو نفاًرٌ أو جلاءٌ
فذلكم مقاطع كل حق ثلاث كلهن لكم شفاء^(٥٤)

بالبعد الاجتماعي والإنساني الذي عليه القول الإلهي: "ولكم في القصاص حياة".
ولربما كان هذا وراء قول ابن قتيبة: "وكان زهير يتأله ويتعفف في شعره، ويدلّ شعره على إيمانه بالبعث"^(٥٥).

ويبدو أن اتجاهه الخلقى كان وراء تفضيل كثير من الناس له. لقد فُضّل على الشعراء لأنه - كما قيل - : "كان أبعدهم من سخف، وأشدّهم اجتناباً لحوشي الكلام"^(٥٦).

والواقع أن زهيراً كان شاعراً فذاً، فلقد فهم بخبرته وذكائه قضايا الإنسان والوجود، وعبّر عنها تعبيراً أدبياً أكسبها سمة البقاء، وهذا ما جعله قائماً في عقول الناس على مر العصور.

وشاعريته أصيلة عريقة تمتد في جذورها وفروعها بشكل جعلها متميزة في تاريخ الشعر العربي القديم. قال ابن الأعرابي: "كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره، كان أبوه شاعراً، وهو شاعر، وخاله شاعر، وأخته سلمى شاعرة، وابنائه كعب

(٥٣) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي (دار المعارف بمصر ١٩٥٦) ٤٠٦، والآية في النساء/ ٧٨.

(٥٤) شرح ديوان زهير/ ٧٥. والآية من البقرة/ ١٧٩.

(٥٥) خزنة الأدب ٢/ ٣٣٣.

(٥٦) المرزباني: الموشح (دار نهضة مصر ١٩٦٥) ٩٥.

وبجير شاعران، وأخته الخنساء شاعرة^(٥٧). وقد ذكر أيضاً أن عقبة بن كعب بن زهير المعروف بالمضرب كان شاعراً، وأنه كان لعقبة هذا ابن يقال له العوام، وكان شاعراً أيضاً^(٥٨).

لقد اجتمعت لزهير عناصر وراثية في الشعر أعطته استعداداً فطرياً لقوله؛ ويبدو أنه أحسّ مثل هذا الاستعداد مبكراً، فأخذ نفسه به وعوّل على تأصيله وتهذيبه حتى غدا شاعراً مذكوراً. لقد وضعه ابن سلام في الطبقة الأولى، تالياً لامرئ القيس والنابغة^(٥٩).

أما أبو الفرج فقد ذكر أن الرواة لم يتفقوا على تفضيل أي من امرئ القيس أو النابغة عليه؛ قال: "هو أحد الثلاثة المتقدمين على سائر الشعراء، وإنما اختلف في تقديم أحد الثلاثة على صاحبيه؛ فأما الثلاثة فلا اختلاف فيهم، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة الذبياني^(٦٠)".

وفي التراث النقدي ما يؤيد قول أبي الفرج؛ فقد جاء في طبقات ابن سلام نفسه أن أهل النظر قالوا: "كان زهير أحصنهم شعراً... وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق^(٦١)".

وقد نسب صاحب خزانة الأدب إلى ثعلب تقديم زهير، كما أورد محاوره بين جرير وابنه عكرمة مؤداها: أن جريراً كان يقدّم زهيراً ويجعله أشعر الجاهليين^(٦٢). وممن كان يقدّمه أيضاً قدامة بن موسى الجمحي، الذي كان - كما يقول ابن

(٥٧) شرح شواهد المغني ١٣٣/١ ومعاهد التنصيص ١١٠/٢.

(٥٨) الأغاني ٣١٤/١٠ وخزانة الأدب ٣٣٣/٢.

(٥٩) طبقات فحول الشعراء ٩٣.

(٦٠) الأغاني ٢٨٨/١٠.

(٦١) طبقات فحول الشعراء ٥٣، والثعالبي: خاص الخاص (دار مكتبة الحياة ببيروت ١٩٦٦) ٩٦.

(٦٢) خزانة الأدب ٣٣٣/٢.

سلام- من أهل العلم^(٦٣). وكان كل من عمر بن الخطاب ومعاوية يسميه بشاعر الشعراء أو أشعر الشعراء^(٦٤). وقد زعم حماد أنه لم يدرك أحداً من أهل العلم من قريش يفضل على زهير من الناس أحداً في الشعر، لكنه يقول: غير أن قريشاً قد اتفقوا على تفضيل زهير والنابغة معاً^(٦٥). وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: "كان أوس فحل مضر، حتى نشأ النابغة وزهير فأخمله"^(٦٦). وسجل بعض النقاد القدامى أحكاماً نقدية توازن بين زهير وغيره على أساس الدوافع النفسية التي اشتهروا بها، فقول: "كان امرؤ القيس أشعر الناس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب"^(٦٧).

والنقد الحديث لا يأخذ بهذه الآراء المطلقة لأنه يدرك اختلاف الشعر والشعراء من حال إلى حال؛ فالمسألة كلها ترتبط بقضايا دقيقة في الشاعر ذاته، وفي الموضوع الذي يتناوله، والجو العام الذي يقال فيه الشعر. ولكن تظل الأقوال التي فاضلت بين زهير وغيره على أساس من الضوابط النفسية خاصة أقرب إلى الاحتمال والتقبل من تلك التي اعتمدت التعميم أسلوباً في أحكامها.

وعلى مستوى الصنعة الشعرية يصادفنا الرأي المنسوب إلى عمر بن الخطاب في تفضيل زهير، حيث قال: "كان لا يعاظم في الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر، ولم يمدح أحداً إلا بما فيه"^(٦٨). لقد أعجب به لأن شعره مستوٍ، وفصيح اللفظ، وناطق بالصدق الحقيقي عن مجريات الأحداث وأوصاف الناس. إن هذا

(٦٣) الأغاني ٢٨٩/١٠.

(٦٤) شرح شواهد المغني ١٣١/١.

(٦٥) شرح ديوان زهير / ٨٦، ٣٢٦.

(٦٦) طبقات فحول الشعراء / ٨١.

(٦٧) العسكري: كتاب الصناعتين (عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٥٢) ٢٣.

(٦٨) الأغاني ٢٨٩/١٠ ومعاهد التنصيص ١٠٩/٢.

النقد - بالرغم من أن نظريات الشعر الحديثة قد تجاوزته بكثير - يظل نقداً يقدم أوليات أساسية في الحكم النقدي المعلل.

وقد لاحظ الأقدمون تأثر زهير في الصنعة بطريقة أوس بن حجر - وكان زهير راوية له - وهي قائمة على البروز الحسي، والاستقصاء للصور وتفصيلاتها^(٦٩). وعرف عن زهير أنه صاحب مذهب التحكيك الشعري في العصر الجاهلي، إذ به عدّ واحداً من الذين أطلق عليهم الأصمعي "عبيد الشعر".^(٧٠) قيل إنه كان ينظم القصيدة في ليلة أو شهر، ثم يتركها عنده عاماً كاملاً لا يذيعها في الناس إلا بعد أن يعاود فيها النظر مرات عديدة. ولهذا سميت قصائده بالحوليات أو المقلدات والمنقحات^(٧١). وحتى نحكم حكماً مقنعاً على عمل زهير هذا، لا بد لنا من الإجابة عن مسألة هامة في المعرفة النقدية: هل الشعر ابن الملكة الشعرية وحدها، أم ابن الصنعة الحاذقة فقط، أم ابنيهما معاً؟

إن الإجابات العصرية لا تميل إلى فصل الصنعة عن الموهبة، وهي تعدّهما أساساً متحدداً لكل فن ناجح. وبهذا يكون زهير واحداً من الذين وعوا باكراً دورهم الشعري الريادي، لذلك جاء شعره ناضجاً متقناً، ولقد لاقى قدراً كبيراً من الإعجاب في عصره وبعد عصره. إن الأساس الفني لمذهبه اهتمامه كثيراً بالصور الكثيفة التي قادت إلى خلق الترابط العضوي في القصيدة الواحدة، لأنها تشيع معان عميقة شديدة التشابك والترابط. إن مثل هذه المعاني تؤدي بتفاعلها وتجاوبها وتجاذبها إلى الكشف عن الرموز والإيحاءات التي تؤلف الوحدة المعنوية الباطنية للقصيدة:

(٦٩) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي (ط. دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة) ٢٨/ وما بعدها.

(٧٠) الشعر والشعراء ٢٣/١.

(٧١) الجاحظ: البيان والتبيين (عبدالسلام هارون ١٩٣٨) ٩/٢، ومعاهد التنصيص ١١١/٢، وخرزانة الأدب ٣٣٥/٢. وابن جني: الخصائص (ط. الهلال ١٩١٣) ٣٣٠/١.

فرصدنا لحركات النفس داخل القصيدة الواحدة يقودنا إلى الوقوف على قضايا إنسانية بعيدة بعداً جذرياً عن الموضوعات الظاهرية التي نتحدث عنها .. وهذه هي القيمة المتوقعة لكل ترابط صوري كهذا الذي يشيعه زهير بإتقان نادر.

بهذا تغدو الأقوال التي اتهمت معلقته كما اتهمت غيرها من المعلقات بالتفكك^(٧٢) أقوالاً قاصرة، عاجزة عن الرؤية الشمولية التي تعتمد اكتشاف الحقيقة من خلال حل العقد والتداخل الشعري العجيب.

ولكن الرواة والنقاد أخذوا على زهير عدة مآخذ في شعره، تنحصر في مجالات اللغة والسرقات والفن وغاياته بشكل عام:

ومن مآخذهم اللغوية استبشاعهم كلمة (حقلد) في بيته^(٧٣):

تَقِي نَقِيٍّ لَمْ يُكْثِرْ غَنِيمَةً بِنَهْكَةِ ذِي الْقُرْبَى وَلَا بِحَقْلَدٍ

ومنها إنكارهم عليه قوله (ركك) في بيته:

ثَم اسْتَمَرُوا وَقَالُوا إِنَّ مَوْعِدَكُمْ مَاءً بِشَرْقِيٍّ سَلْمَى فَيْدُ أَوْ رَكَكُ

لأنه حكى بعض الأعراب أنه قال: إنما هو "رك" ^(٧٤). ولست أرى وجهاً لهذه المآخذ. ف(حقلد) كلمة عربية مستعملة، قد تكون ثقيلة على اللسان، لكنها في موضعها في البيت أدت ما أراد الشاعر؛ أما (رك) فتقلها هو الذي دفع الشاعر إلى فك إدغامها. والشاعر - على أية حال - اطمأن على وضع كل كلمة في

(٧٢) الموجز في الأدب وتاريخه ١/١٨٥.

(٧٣) كتاب الصناعتين/٣٠ والبيت في الديوان/٢٣٤، والحقلد: الضيق البخيل، والسيء الخلق.

(٧٤) الموشح/٦١، وحكي عن بعض الأعراب أنه قال: إنما هو (رك)، والبيت في الديوان/

١٦٧.

موضعها من شعره، لذا فإن أي مأخذ لا يكون بإفراد الكلمة ومحاسبتها على جمالها أو قبحها منعزلة، وإنما في موضعها من القصيدة. وهذا مبدأ غير الذي حوكم على أساسه زهير، كما هو واضح.

وأما في نحل الشعر فقد روي أن الأصمعي كان "يرى أن أبياتاً من قصيدة زهير الميمية (أمن أم أوفى ...) ليست له، وإنما هي لصرمة بن أنس الأنصاري"^(٧٥). واتهم أيضاً بالإغارة على شعر غيره من الشعراء؛ فقد جاء على لسان أبي عبيدة قوله: كان قراد بن حنش من شعراء غطفان وكان جيد الشعر قليله، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه، منهم زهير بن أبي سلمى ادعى المقطوعة التي مطلعها:

إِنَّ الرِّزْيَةَ لَا رِزْيَةَ مِثْلَهَا مَا تَبْتَغِي غُطْفَانُ يَوْمَ أَضَلَّتِ^(٧٦)

والمقطوعة في ديوان الشاعر، وقد ذكر أنها في رثاء سنان بن أبي خارجة، مع زيادة بيت على الأبيات التي رواها أبو عبيدة وهو:

وَمُلْعَنٍ ذَاقَ الْهَوَانَ مُدَقِّعٍ رَاخِيَتِ عُقْدَةَ كَلْبِهِ فَاَنْحَلَّتِ^(٧٧)

ومع تقديم وتأخير في الأبيات، ثم مع اختلاف في رواية بعض الألفاظ والعبارات.

(٧٥) مصادر الشعر الجاهلي ٣٢٨ عن كتاب المعمرين/٦٦. وهناك قصيدة أخرى منسوبة للأصمعي في ديوان زهير/٢٨٤.

(٧٦) المرزباني/معجم الشعراء (عيسى البابي الحلبي ١٩٦٠) ٢٠٥.

(٧٧) شرح ديوان زهير /٣٣٤.

وهذا أمر يرتدّ إلى مسألة النحل والانتحال في الشعر الجاهلي. ومن الصعب أن يجزم الإنسان فيها برأي، وتظلّ خاضعة للفرض والتخمين. على أن مما يضعف احتمالات كون الأبيات لقراد أن أحداً لم يقل بذلك سوى أبي عبيدة، وأن الأبيات في الديوان مزيدة ومختلفة بعض الاختلاف، ومقرونة عند زهير بمناسبة؛ ولم ترد أية إشارة من ثعلب، شارح الديوان، تشير إلى اتهامها على غير عادته.

أما في مجال السرقة الشعرية فيذكر الرواة أن زهيراً أخذ أبياتاً ممن سبقه أو عاصره من الشعراء. من ذلك - مثلاً - قول امرئ القيس^(٧٨):

فلأياً بلأبي ما حملنا غلامنا على ظهر محبوبك السراة محنّب

أخذه زهير فقال:

فلأياً بلأبي ما حملنا غلامنا على ظهر محبوبك ظمأ مفاصله

والمسألة هنا ترتبط بمفهوم السرقات الشعرية قديماً وحديثاً، لأن هذا المفهوم ليس واحداً في العصرين: فبينما يعدّ النقد القديم التأثر والتأثير في الشعر سرقة معيبة، ينظر إليها النقد الحديث على أنها طبيعية، بل ربما كانت عامل إغناء كبير في الشعر؛ لأن حصيلة هذا الفن تلاقح المشاعر والمواقف والأفكار الإنسانية. وهو لا يفترض السرقة في الشعر أبداً، لأنه يعتبر الشاعر مسؤولاً عن كل حرف يستخدمه. وهو - على أية حال - لا ينظر إلى الشعر نظرات جزئية تتوقف عند التقاء شاعرين عند كلمة أو جملة، لأن الشاعر الذي يصدر عن تجربة ذاتية حية لا بد أن يحدث شيئاً ما فيما يتأثره، وذلك ليحوّله إلى عالمه الخاص المفروض من المواقف الذاتية. فزهير تصرّف ببيت امرئ القيس تصرفاً يبدو قليلاً، لكنه إذا قرن إلى السياق كله ونظر إليهما نظرة شاملة، أمكن أن يقال

(٧٨) انظر هذين البيتين وغيرهما من الأبيات مجموعة في شرح ديوان زهير ١٥ - ١٧ المقدمة.

إن التجربة الكلية المتكاملة في القصيدة هي التي فرضت مثل هذا التصرف؛
عندها يغدو الشعر كله ملك زهير، يحاسب عليه ويحاكم به.

وأما في المجال الفني فقد أخذوا عليه إضافته (أحمر) إلى (عاد) في قوله:

فَتُنْتَجِ لَكُمْ غِلْمَانٌ أَشْأَمَ كُلِّهِمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتُقَطِّمِ

قائلين: (إن ثمود لا يقال لها عاد، لأن الله عز وجل إنما نسب قداراً إلى
ثمود^(٧٩) كما خطأوا قوله:

يُخْرِجُنْ مِنْ شَرَبَاتٍ مَاؤَهَا طَحَل عَلَى الْجَذْوَعِ يَخْفَنُ الْغَمَ وَالْغُرْقَا

قائلين: "ظن أن الضفادع يخرجن من الماء مخافة الغرق"^(٨٠) وهذا خلاف
الواقع.

إنهم - كما يبدو من تقديم لشعره هنا - لا يفرقون كثيراً بين الصدق الحقيقي
والصدق الفني. فالشاعر - فنياً - لا يتقيد بسرد الواقع كما كان وإنما كما يمكن أن
يكون من جهته؛ ومن هنا لا يعيب زهيراً أن وضع (عاد) بدلاً من (ثمود)، لأنهما
في خياله ترمزان إلى معنى ذهني واحد هو الشر الرابض في الأرض؛ ومن هنا
أصبحت الواحدة تعني الثانية عنده.

كما لا يعيبه أيضاً أن خالف المفهوم السائد في تفسير خروج الضفادع من
الماء، لأنه وهو ينظم القصيدة التي منها البيت أراد هذا التفسير لحاجة خاصة به.
فالذي يجب أن يحاسب عليه الشاعر هو مدى ارتباط الجو الذي يستحدثه بدوافعه
ومواقفه؛ إذ لا بأس حينئذ من تحوير الواقع أو استبداله بواقع جديد يخترعه خيال
الشاعر وعواطفه. إن عدم وضوح هذا المفهوم في أذهان كثير من النقاد الذين

(٧٩) طبقات فحول الشعراء/٧٣ والموشح/٥٦.

(٨٠) كتاب الصناعتين/٧٢.

درسوا زهيراً هو الذي دفعهم إلى محاكمته على أساس محاكاة الواقع، وبالمعنى الحرفي لهذه المحاكاة، فأخطأوا في أحكامهم النقدية عليه.

هذه صورة كاملة لزهير الإنسان وزهير الشاعر، وهي صورة تحوي مضموناً واحداً هو "السمو": فلقد كانت أفكاره ومواقفه الاجتماعية تصدر عنه وتهدف إلى إنجازها على مستوى العصر كله؛ فبالسمو - كما عبر زهير في شعره مراراً - يعرف الإنسان موقعه من الحرب والسلام، وبه أيضاً يدرك أبعاد إيجابياته في تفاعله مع غيره ممن يؤلفون معه وحدة اسمها المجتمع المتكامل. وكان أيضاً يطبّق سموه في خلقه. يُروى أنه كان يقول: ما أنا بأشعر من النابغة.^(٨١) ويروى أيضاً أنه كان محبوباً ومحترماً ممن عرفه^(٨٢). كما كانت مناهجه في الإبداع الفني تتصف بالسمو أيضاً، فإذا وعينا أن سمو الفني يعني النتيجة التي يتوصل إليها شاعر يجتهد في تعمق تجربته وإتقان وسائله حتى يخرج، حين تخرج، وهي صاعدة إلى قمم الإبداع، ومتجاوزة كل ما قد يسمها بالابتذال والسوقية، أدركنا كم كان حظ زهير من سموه الفني عظيماً.

إن إحساسي بصفة سموه في شعره فكراً وفناً هو الذي دفعني لإطلاق لقب (شاعر السموم) عليه؛ فزهير شاعر متميز بإخلاصه لعصره وإخلاصه لشعره، لذا فهو ما زال بحاجة منا إلى دراسة جديدة واعية هادفة تستقصي شعره وتستخرج منه كنوزه الثمينة.

د. عبدالقادر الرباعي

(٨١) شرح ديوان زهير / ٣٢٦.

(٨٢) خزنة الأدب ٤/ ١٥٠ وذيّل الأمالي / ٢٣ وديوان كعب بن زهير / ٢٦.